الدراميون العظام «إسخيل» و«سوفوكل» و«يوريبيد» كانوا يتسابقون ويتنافسون على نيل جوائز ملوك الإغريق[٧٧]، و«فيرجيل» و«هوراس» و«أوفيد» كانوا يعتمدون على هبات «أوغسطس» و«مايسناس» ورعايتهما»[٧٨]. وكتب الأدب العربي القديمة كـ«طبقات فحول الشعراء» لابن سلام الجمحي، و«الشعر والشعراء» لابن قتيبة، و«الكامل» للمبرد، وكتب الجاحظ و«الأغاني» لأبي الفرج الأصفهاني، و«العقد الفريد» لابن عبد ربه، كلها مملوءة بحكايات الشعراء مع الخلفاء والأمراء والقادة، ومدحهم لهم، وارتزاقهم بشعرهم. وفي عصر النهضة كان كثير من الشعراء من أمثال «بترارك» يعتمدون على هبات بلاطات الأمراء، وكذلك الأمر بالنسبة إلى شعراء «التروبادور» الذين كانوا يعيشون في قصور الملوك ويتغنون بأشعارهم العاطفية[٧٩]. ونجد بعض النبلاء الأرستوقراطيين يحمون ا لأدباء ويقربونهم منهم في القرن التاسع عشر أيضاً[٨٠].

ولكن الأوضاع أخذت تتغير ابتداء من القرن التاسع عشر، حين اتسعت دائرة القراء أكثر من ذي قبل، وانحسرت مساحة الأمية شيئاً فشيئاً، وأخذت الصحافة اليومية ومرافق الطباعة والنشر في الازدهار والانتشار المطرد، إضافة إلى نشاط المسارح وما تتطلبه من نصوص تمثيلية.. فكل هذا يعد من العوامل المهمة والفعالة التي أفسحت المجال أمام الأدباء كي يعتمدوا على أنفسهم في رزقهم ويستقلوا اقتصادياً، ويستغنوا عن تمويل الأمراء والنبلاء.

وهكذا فإن الكتابة أصبحت «مهنة» رابحة، و«يعد ولترسكوت، ومارك توين أول كاتبين استطاعا أن يجمعا ثروة من مهنة الكتابة، وقد بددا هذه الثروة نتيجة لمغامرات تجارية واسعة»[٨١].

وليس من شك في أن هذا الاستقلال الاقتصادي تبعه استقلال أدبي وفكري أيضاً، ذلك أن الملك أو الأمير أو القائد، أو النبيل، كان يعد «مستمعاً حصيفاً لا يتطلب فقط التملق لشخصه بل الامتثال لطبقته أيضاً»[٨٢] ـ مقابل حمايته ورعايته المالية، على حد تعبير «ويليك».